من رؤيا "فوكاي"

القطع التالية ، اجزاء من قصيدة طويلة بهذا الاسم، ما زالت قيد الكتابة وفوكاي ، كاتب في البعثة اليسوعية في هيروشيا ، جُن من هول ما شاهده غداة ضربت بالقنبلة الذرية .

•

١ = هياي .. كونغاي ، كونغاي (١)

ما زال ناقوس أبيكِ يُقلق المساءْ
بأفجع الرثاء :
« هياي .. كونَغاي ، كونغايْ » ،
فيفزع الصغارُ في الدروبْ
وتخفق القلوبْ ،
وتغلق الدُّور ببكّينَ وشنغهايْ
من رَجع : كونَغاي ، كونَغاي !
فلتُحرقي وطفلك الوليد ،
ليجمعَ الحديدَ بالحديد
والفحمَ والنحاسَ بالنُّضار
والعالمَ القديمَ بالجديد
آلهة الحديد والنحاس والدّمار !
أبوكِ رائدُ المحيط ، نامَ في القرار :
من مقلتيه لؤلؤٌ يبيعه التجار (٢) ...
وحظكِ الدُّموع والمحار
وعاصفاتٌ من الرصاص والحديد .
و « أريلُ » الجديد :
الهدْرُجين (*) ، واهب المياه للقفار
ومُنجبُ اللهيبِ ، عادَ يُرسل الوعيد
يهزّ شنغاي
برْجعِ « كونغايَ ، كونغايْ » .
وذلكَ المجَلْجِلُ المرِنُّ من بعيد:
لمن ، لمن يدق : « كونغاي ، كونغاي » ؟
أهمّ بالرّحيلِ في (غرناطة) الغجرْ ؟
فاخضرّت الرياحُ ، والغديرُ ، والقمرْ ؟ (١)
أم سمّر المسيحُ بالصليب فانتصرْ
وأنبتتْ دماؤه الورودَ في الصخرْ ؟
أم أنها دماءُ كونغاي ؟
هياي .. كونغاي ، كونغاي.
ورغمَ أن العالمَ استسرّ واندثرْ (٢)،
ما زال طائرُ الحديد يذرعُ السماء ،
وفي قرارة المحيطِ يَعقدُ الكرى
أهدابَ طفلك اليتيم – حيثُ لا غناءْ
إلاّ صراخَ (البابيون) : « زادُكَ الثرى ،
فازحفْ على الأربع ... فالحضيض والعلاء
سيّان ، والحياة كالفناء ! »
سيّانِ «جنكيزُ» ،و « كونَغايْ »
هابيلُ قابيلُ ، وبابلٌ كشنغهاي ؛

(١) تحدثنا إحدى الاساطير الصينية عن ملك اراد ناقوساً ضخماً يصنع من الذهب ، والحديد ، والفضة ، والنحاس . وكلف احد الحكام بصنعه . ولكن المعادن المختلفة ابت ان تتحد . واستشارت كونغاي – وهي ابنة ذلك الحاكم – العرافين بالأمر فأنبأوها بأن المعادن لن تتحد ما لم تمتزج بدماء فتاة عذراء .. وهكذا القت كونغاي بنفسها في القدر الضخمة التي تصهر فيها المعادن .. فكان الناقوس .. وظل صدى كونغاي يتردد منه كلما دق : « هياي .. كونغاي ، كونغاي » .

(٢) شكسبير – العاصفة : أغنية « أريل » – روح الهواء الذي سخره « بروسبيرو » الساحر – لفرديناند : « على عمق اذرعة خمس ينام ابوك في قرارة البحر ، لقد أصبحت عيناه لؤلؤتين .. اسمع ها هو الناقوس ينعاه » وقد اتخذه ت . س . إليوت في « قصيدته الكبرى (الأرض الخراب) رمزاً عن « الحياة من خلال الموت » ولكن لاحظ كيف حولت « يبيعه التجار » الى « تبيعه التجار » المنى !

(*) إن ثلثي تركيب الماء من الهيدروجين ... كما ان قنبلة مبيدة تصنع من هذا الغاز ذاته!

(١) هذا البيت مقتبس من قصيدة للشاعر الاسباني القتيل لوركا ، شاعر الغجر .

(٢) هذا البيت والابيات الستة التي تليه – تكاد تكون حرفية – عن الشاعرة الانكليزية العظيمة ايديث ستويل من قصيدتها الرائعة ترنيمة السرير Lullaby حيث تجلس البابيون – القردة – في قاع المحيط تهزّ مهد طفل بشري – قتل « طائر الحديد » امه – وتغني له ... مصبحة بهذا – وهي القردة – اماً للطفل البشري ومعلمة له ايضاً!!

وليلاحظ قراء قصيدتي هذه ان هناك شخوصاً ثلاثة تترابط في ذهني : الصياد الياباني – او الصيني !!–الغريق الذي اخاطب ابنه. وابو «فرديناند» – الذي زعم اريل انه غرق – ، والقردة « البابيون » التي اتخذت مكان ام الطفل في قرارة المحيط ، كما جاء في قصيدة ايديث ستويل ».

٣٠

وليست الفضّة كالحديد !!
هياي ... كونغاي ، كونغاي !
الصّين حقلُ شاي ،
وسوقُ شنغهاي
يعجُّ بالمزارعين قبلَ كلِّ عيد .
هياي ... كونغاي ، كونغاي !

٢ – تسديد الحساب

تلك الرواسي كم انحط النهارُ على
أقصى ذُراها ، وكم مرتّ بها الظلمُ
فما فرحنَ بآلافِ الشموسِ ، ولا
من ألف نجمٍ تردّى مسّها ألمُ
صمّاءُ ، بكماء ، لم تأخذْ ، ولا وَهبتْ
ولا ترصدها موت ولا هرم
لو أودع اللهُ إيّاها أمانته
لنالهنّ على استيداعها ندمُ
ولاقتسمنَ مع الأحياء ما دفعت
من جزيةٍ لا توفى حين تُقتسم :
عن كلِّ قهقهةٍ من صرخةٍ ثمنٌ
وما استجدَّ دمٌ إلا وضاع دم
وما تحمّل آلام المخاض ولم
يقرب من النّور إلاّ الفكرُ والرحمُ
وان يكن أسعدَ الاحياء أكملها
فأنما هو أشقاهنّ لا جَرَمُ ؟
(قابيلُ) باقٍ وإن صارت حجارته
سيفاً ، وإن عادَ ناراً سيفُه الحُذِمُ
وردّ « هابيلُ » ما قاضاه بارئه
عن خَلقه ، ثمّ ردّت باسمه الأممُ
واليومَ ، في حين وفى الدّينَ غارمه
إلا بقايا وكادت تخلص الذّممُ
وكاد يُرجع للدنيا بشاشتها
ما قرّبته الضّحايا وهي تبتسمُ
مشى على الأرض خلقٌ عاش في دمه
من وحشها في المخاض الاولِ الضرمُ
خَلقٌ تراءى لـ (يحيى) (*) ساعة افترست
عينيه رؤيا لها من هؤلاء فمُ
لو يُقبض النورُ بالأيدي لسوّره
دونَ الورى .. ولتعمّ العالمَ الظلمُ

(*) القديس يوحنا – كما يسميه المسيحيون .

زيّانُ عطشانُ لا يروى ، بلا فرَحٍ
جذلانُ ، بادٍ عليه الجوعَ والبشمُ
كأنه – وهو ماض في غوايته –
من نفسه اقتص ، فهو الماءُ والحممُ
تفجر الضحكُ المسلوبُ من رئةٍ
منخوبةٍ بعد أخرى هدّها السّقمُ
عن ضحكةٍ أطلقوها فهي صاعقةٌ
أصابهم والورى من رجعها صممُ
واستنزفوا متعةَ الأحياء : ما دفعوا
عنها ، ولا غارماً مااستنزفوا رحموا
ثم استزادوا .. فأن لم يذهبوا ديةً
أو يقصرواعن طماحٍ يرجحِ العدَمُ !

٣ – حقائق كالخيال (١) ...

ماذا تريدُ العيونُ السودُ من رجلٍ
قد حاشَ زهرَ الخطايا حين لاقاها
زهراً على جسمي المحمومِ أقطفه
في باقةٍ من جراحٍ بتُّ أصلاها :
هذا الربيعَ الذي تهدي شقائقه
ريحَ المنايا إلى قلبي برياها .
أزهارُ تموز (٢) ما أرعى : أسلمه
في عُتمة العالم السُّفليِّ إياها ؟
أم صِل (حوّاء) بالتفّاح كافأني
وهو الذي أمسِ بالتفاح أغواها ؟
ماذا تريدُ العيونُ السود ؟ انّ لها
ما لستُ أنساه منها حين أنساها
ما بالهنّ استعَضنَ البومَ أوعيةً
عن أوجه الغيد .. حتى ضاع معناها ؟
أين المناقيرُ من لعس مراشفُها
ريّ ؟ وأين ابتسام كان يغشاها

(١) المتحدث في هذه القصيدة مريض في مستشفى الصليب الاحمر في هيروشيما ، مصاب بالزهري الذي افترس دماغه حتى عاد يتخيل اشياء لاوجود لها ، ولكنه – من خلال اوهامه ودون وعي منه – يصور جانباً مما حدث في هيروشيما حين القيت عليها القنبلة .

(٢) تموز هو ادونيس : آله الخصب والنماء ، وحبيب عشتروت – او فينوس – الهة الحب . وهو يقضي نصفاً من السنة – الشتاء – في العالم السفلي مع برسفون ، والنصف الآخر – الصيف او الربيع – على الارض مع فينوس .

٣١

مِنْ هذه الخربةِ الظلمـــاء محدقة
بي أعين البومِ من أحداثِ موتاها؟
قفراءُ من غيرِ ثكلى شفّ مئزرها
عن وَهجِ فانوسها الكابي وأخفاها
تسعى كما اصطادَ في ليلٍ يراعته (١)
طفلٌ، وطارت وقد ألوى جناحاها
محنيـــة تتقرى كل شـــاهدةٍ
من كلّ قبرٍ، كما لو كان طفلاها
في كلّ قبرٍ يذوقان الردى : ديةً
عمن يؤاوي وعن أحياء دنياها
نادتهما فانبرى يزقو لصيحتهـــا
-من حيث ردّ الصدى- بُومٌ وناداها:
« أسّاه إنا هنا . ريحٌ بنا عصفت
لم ندرِ أين انتهينا بعد لقياها »
وانشقّ من خَلفهـــا قبرٌ ليبلعها
واحتازها واشرأبّت منه كفّاهـــا
يختصّ فانوسُهـــا التمتامُ بينهما
والريحُ خرساء تعبى ..
غيرَ « ها.. ها .. ها ..»

* * *

ويلمّ سازاكِ(٢) كيفَ اندكّ حائطه
حتى تعرّى ليَ السهلُ الذي حجبا ؟
سهلٌ يكنّ الصلالَ الرقط، أجهضه
عادٍ من المحل حتى يفزع العطبا
وانبحّت التربةُ العجفاء -من عطش-
عن أشدقٍ فاغراتٍ تنبحُ السحبا
والشمس كالأطلس(٣) المسحور تنهشه
والريحُ تصليه من تنورها لهبـــا
الريح؟ لا، ليست الريح التي ركضت
بيضاءَ سوداء رقطاء القفا عجبـــا
عنقاء(٤) في مِسْعر الجوزاء أعينُها
والصخرُ يرفضّ من أظلافها شهبا
تلك الزّرافات(٥). في السهل العقيم لها
مرعى روَى من سرابٍ، ينبت السّغبا
ما روّعتها سوى وَضواء خشخشة
في كفّ أبرص يعدو خلفها خببا
تخفيه عنها ضمـــادات، ويظهره
ما نزّ من قيحه الدامي وما سَخَبا
نادى، وكفّاه تختضان، «واحرَبا»
فاستعبر العاصف المصدور «واحربا».
«ماء اسْقِ يا ماء..» تلهاث مقاطعه
منزوعة من لسانٍ يشبه الخشَبا
حتى استجاب السحاب الجوّ فانعقدت
في الجوّ حبّاته الغبراء فاحتجبـــا
وانهلّ: لا عن ندىً صافٍ ولا مطر
بل عن دم، من ثُدي مزّقت حُلبا
أو عن مشاش من الاحداق فقأها
سِيخٌ لجنكيزَ (١) دام ينفث اللهبا
«ماء، اسق ياماء..»، والغيث الرهيب كلىً
مَفرية سحّت الآجـــال والكرَبا
لم يَبقَ من مرتوٍ أو ظامئٍ، بفمٍ
أو دونَ..، الاّ ومن ماء الرّدى شربا

* * *

ويلٌ لسازاك ! ماذا ينتوي بدمي
من نيّةٍ .. فهو يستصفي ويمتار ؟
تلك الزجاجـــات اشلاء مجزأة
مني، دمي مختزٍ فيهن موار !
لم تثن سازاك عن شحذ لمديته
آهات مرضى، ولا ألهاه زوار
إني لدارٍ بأني حين يشرعهـــا
رانٍ اليها، فملدوغٌ، فمُنهـــار
هل تبتغي شفرتاها غـــير آنيةٍ
فيها دمي راجفٌ، والداء والعار ؟
ما كنت يوماً ولا المرضى سوى عَرضٍ
- في عينِ سازاك - يُجبى منه ايجار
ست وعشرون : أعدادٌ على سررٍ
اما الأصحاء والمرضى فأصفار !!
فالرقم (عشرونَ) لا يسقى سوى لبنٍ
والرقم (عشرٌ) نعاه اليومَ محرارُ
واليوم لم يبقَ ما اعطيه عن مرضٍ
الا دعائي وقولي « نِعمتِ الدارُ »!
فليلقَ سازاكُ من يسمى (ثمانية)
غيري، ويستوفِ أجرَ القبر حفارُ!

بغداد

بدر شاكر السياب

(١) اليراعة : ذبابة مضيئة، حباحب. (٢) الدكتور سازاكي كان طبيباً في مستشفى الصليب الأحمر في مدينة هيروشيما. (٣) الأطلس: الذئب. (٤) عنقاء: طويلة العنق. (٥) الزرافات : جمع زرافة، الحيوان المعروف.

(١) جنكيز خان السفاح المشهور.

٣٢